احتفت تونس والأقطار العربية بالذكرى المئوية لميلاد الشاعر أبي القاسم الشابي الذي كان في وقت مبكر يمثل تلاحم الثقافة العربية في المشرق والمغرب. «غيمان» تقدم لهذه المناسبة دراستين عن شعر الشابي للدكتور عبدالعزيز المقالح والدكتور حاتم الصكر.

ملامح صوفية في شعر الشابي

عبدالعزيز المقالح

لست أدري إن كان أحد من الدارسين قد سبقني إلى الحديث عن الملامح الصوفية في شعر الشابي. وإذا كان ذلك قد حـدث، فإن قراءتي الموجزة هذه تضاف إلى ذلك الجهد السابق، مؤكدة أن الإبداعات الخلاقة تجمع دائماً بين احتراقات الروح والجسد، وتطـوف حول المرئيات الواقعية الثابتة، كما تطوف حـول مرئيـات تدركها بصيـرة المبـدع الحقيقي ولا يدركهـا بصره، وتنهل مـن عوالم خفية موحية تربطهـا بعوالمنا الداخلية وشـائج لا ننتبه لها، ولا نتمثلهـا إلاَّ من خلال الكلمـات عندما تتحول إلى عبارات تلقائية، نقف أمامها في انبهار متسـائلين: أين كانت؟ وكيف ظهرت؟ وهل أضافت إلى أشـياء الكون أشـياء جديدة، وإلى ألـوان الطيف المعروفة ألواناً أخرى، وإلى معاني الوجود معنى آخر؟

وإذا كنا نرى -ونحن على حق فيما نذهب إليه- أن شوقي ومجايليه من شعراء أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، قد أسسوا لما يسمى بالإحياء النهضوي في الشعر العربي الحديث، فإن أبا القاسم الشابي وأمثاله من شعراء الرومانتيكية العرب، قد أسسوا لما يسمى بالتحديث والتجديد المعاصر، وكانوا بإنجازهم الإبداعي الجسر الذي عبر عليه شعراء الحداثة العرب على اختلاف طرائقهم ومستويات تحديثهم. وكان الشابي، الذي رحل مبكراً، من أهم شعراء هذا الجيل، باقترابه من تمثل النزعة التجديدية المتمردة، وكسره نمطية التعبير الخجول عن الذات في مواجهة الآخر، والاقتراب من كثير من الظواهر الجزئية، التي صارت فيما بعد اتجاهات واسعة وقائمة بذاتها، كما هو الحال مع ذلك التعبير الجزئي عما سمّيناه بالملمح الصوفي.

وقد يقال إن هذا الملمح قديم في الشعر العربي، وأنه يتميز بوضوح شديد في إنجازات الشعراء المتصوفة القدماء في أبلغ دلالاته. وهذا صحيح، إلاَّ أن استرجاعه، أو بعبارة أخرى التنبه له وإعادة إنتاجه -وإن بشكل مختلف ومحدود- يشكّل ملمحاً من ملامح التجريد والتجديد في القصيدة المعاصرة، الأمر الذي يبدو جديراً باهتمام الباحث وعنايته، لما يمثله من ضرورة فنية وتعبيرية، بعيداً عن النظرة الصوفية للوجود وتجلياته، وما تعوّل عليه التجربة الصوفية من حالة انخطاف صوب الماورائيات، ورفد عالم الجمال بما لم يكن في شعر الكلاسيكية من رؤى وتوقدات، تفتح أمام الشاعر فضاءات تعبيرية والتماعات وجدانية باللغة الرهافة والبهاء، تبتعد معها التجربة الشعرية عن المألوف من الأشكال والألوان والأحوال.

وإذا كان أدونيس قد وجد تشابكاً بين السوريالية والصوفية في كتاب له بهذا العنوان، فإن آخرين قد وجدوا مثل ذلك التشابك بين الرومانتيكية والصوفية، لأن كلتيهما يصدران عن منطقة الأحلام والمثالية، وإن كانت الرومانتيكية في غالب نتاجها تأتي من مناطق الخيبات والمآسي، في حين أن الآمال الكبرى، هي مجال الصوفية ومصدر حقيقتها الغامضة. يضاف إلى ذلك أن كلتيهما (الصوفية والرومانتيكية) تمجدان الحب الصافي والنقي، وإن كانت علاقة الصوفي بالحق أقوى من علاقة الرومانتيكي وأعمق. كما أنهما تتقاربان في الاندهاش أمام الطبيعة، وتقفان معاً في محرابها بخشوع.

وقد يأخذنا الحديث عن الملامح الصوفية في شعر الشابي إلى قراءة ملامح القلق والتمرد في كثير من قصائده، وهو قلق صوفي بامتياز؛ فضلاً عن أن الشعر في ذاته فعل صوفي، بغض النظر عن قربه أو بعده من هذا المصطلح الغائم، وذلك أن الشعر حلم، وعنصر الحلم يجمع بين الصوفي والشاعر، وكلاهما في سفر دائم لاكتشاف ماهية الأشياء والتحديق صوب المرافئ التي تنشدها الروح بعيداً عن الثابت والمألوف. وإذا كان الشاعر يمتلك من صور التعبير ما يمكنه من جلاء الحالات الروحية، على خلاف الصوفي الذي يجد "العبارة تضيق كلما اتسعت الرؤية"، فإنهما -معاً- يستخدمان العلاقات والرموز ذاتها،

إن ما تعوّل عليه التجربة الصوفية من حالة انخطاف صوب الماورائيات، ورفد عالم الجمال بما لم يكن في شعر الكلاسيكية من رؤى وتوقدات، تفتح أمام الشاعر فضاءات تعبيرية والتماعات وجدانية باللغة الرهافة والبهاء

ويبحثـان عن تمثلات لغوية وصورية تجسـد ذلك الوجد وتعيد تقديمه. وهو ما أدركه الشـابي وعبّر عنه في سـياق حديثه عمّـا كان يمكن أن يضيفه التصوف إلى الأدب العربي القديم لو كان شـعراء العربية قد استوعبوا التجربة الروحية للمتصوفة، "حيث يقول: حتى أن المذاهب الفلسفية التي تغلب عليها النزعة الروحانية لم تعرف سبيلاً إلى نفوس العرب، فمذهـب وحدة الوجود، الـذي هو أعمق نظريـات المتصوفة، لم يشـتهر به مـن متصوفة الأمـة العربيـة إلا من كانـوا أغراباً عـن العرب، كالسـهروردي والحلاج والشمس التبريزي وجلال الدين الرومي".

وقبـل البدء فـي إيراد النمـاذج الممثلة لملامح الصوفية في شعر الشابي، ينبغي أن نؤكد ملاحظتين مهمتين: الأولى أنني لسـت هنا بصدد تقديم بحث معمق عن الشـعر الصوفي، والأخرى أن الصوفية في بعدها الديني لا وجود لها في شعر الشابي، ولا في أي شعر عربي حديث حاول الاقتراب من المناخ الصوفـي، بما يمثله من إخفاء وإضمار، ومن تنازع بين صبوات الخير ونوازع الشـر؛ لكن الصوفية، أو بالأحرى ملامح منها، قائمة في نماذج من الشـعر على شكل رؤى تبحث عن حل لمعضلات الحياة في الوجود اللانهائي المطلق، كما في قصيدة الشـابي المعنونة "إلى الله":

يا إله الوجود! هذي جراح
في فؤادي، تشكو إليك الدواهي
هذه زفرة يصعّدها الهمُّ
إلى مسمع الفضاء الساهي
هذه مهجة الشقاء تناجيك
فهل أنت سامع يا إلهي؟!

أنت أنزلتني إلى ظلمة الأرض
وقد كنت في صباحٍ زاهٍ
كالشعاع الجميل، أسبح في الأفق
وأصغي إلى خرير المياه
وأغني بين الينابيع للفجر
وأشدو كالبلبل التيّاه
أنت أوصلتني إلى سبل الدنيا
وهذي كثيرة الاشتباه
ثم خلفتني وحيداً، فريداً
بين داعٍ من الرياح وناه[1]

الخطاب الصوفي إذن –كما هو بديهي– يكمن في التوجه إلى الله والانشـغال بمخاطبته والبحث عن الطـرق الموصلة إليـه. وعنـوان النص الذي اجتزأنا منه الأبيات السابقة (إلى الله)، هو عنوان صوفي بامتياز، ويقدم له الشاعر بسطور من النثر تقول: "تعـرض القلب الإنسـاني الـذي لا تنتهي أطواره بأزمات نفسـية ثائرة، يعصـف فيها الألم والقنـوط بكل حقائق الحيـاة وتتزعزع كل قواعد الإيمان والحق والجمال، فيشـعر المرء كأنما أنبتَّ ما بينه وبين الكائنات من وشـائج الرحم والقربى، فأصبـح غريباً في هذه الدنيا القريبة في نفسـه، وكأنمـا الحياة فن من العبث المرعب الممل الذي لا يجدر بالعطف والبقاء. ولكن من رحمة الأقدار أنها حـال عارضة لا تدوم إلاَّ كما تدوم عاصفة البحر، تكدر صفـاءه وتحيل جماله إلى شـناعة، وأنغامه إلى عويل، وانسجامه إلى فوضى، ثم تقر العاصفة

> الصـوفية في بعدهـا الدينـي لا وجـود لها في شـعر الشـابي، ولا في أي شـعر عربي حديـث حاول الاقـتراب من المناخ الصـوفي، بما يمثله من إخفاء وإضمار، ومن تنازع بـيـن صـبوات الخير ونـوازع الشر

وتسكن ويرجع البحر إلى زرقته الصامتة، وألحانة المتزنة، وجماله الساحر الأبدي. وتحت تأثير هذه الحالة النفسية الجامحة نظمت القصيد التالي، ونفسي سكرى بأحزانها الدامية وآلامها المتشحة باللهيب"(٢).

لقد حرصت على إيراد مقدمة القصيدة كاملة لما لهذه المقدمة من أهمية في إثبات حالة القلق التي تسبق المناجاة، وهو قلق يذكرنا بحالات كثيرة مماثلة لدى عديد من المتصوفة الذين تنازعتهم الشكوك، وسيطرت عليهم حالات من القنوط، قبل أن تتكشف لأعينهم الطريق وتتساقط الحجب وتنفتح الأبواب.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن النص الشعري عند الشابي سهل التلقي، ميسور التناول، وأن هذا الشاعر أقرب إلى المتلقي من سائر الشعراء الرومانتيكيين؛ إلاَّ أن هذا النص في –حقيقة الأمر– لا يخلو من غموض وإخفاء. ومن هنا، فإن الاقتراب الأعمق من تجربته الوجدانية، بكل أبعادها، ينطوي على قدر من الصعوبة، لاسيما ما يتعلق منها بالملمح الصوفي، الذي يبدو من خلال تلاحق الصور وتداعياتها:

في جبال الهموم أنبت أغصاني
فرقّت بين الصخور بجهد
وتغشاني الضباب، فأورقت
وأزهرت للعواصف وحدي
وتمايلت في الظلام، وعطّرت
فضاء الأسى بأنفاس وردي
وبمجد الحياة والشوق غنيت
فلم تفهم الأعاصير قصدي
ورمت للوهاد أفنانَي الخضر،
وظلّت في الثلج تحفر لحدي(٣).

وكثيرة هي النصوص التي تقترب من هذا المنحى الصوفي في شعر الشابي، بدلالات أحواله ومطلقاته الغائمة، كما في قوله:

غير باقٍ في الكون إلاَّ جمال الروح
غضّاً علَى الزمان الأبيد(٤).

وكذلك قوله:

كلما أسأل الحياة عن الحق
تكف الحياة عن كل همسِ
لم أجد في الحياة لحناً بديعاً
يستبيني سوى سكينة نفسي(٥).

وجمال الروح، بمعناه الأسمى، كما في سكينة النفس، مطمح صوفي، والبحث عنهما في دروب الحياة، بمشكلاتها وتناقضاتها في طليعة ما ذهب إليه المتصوفة، وما عبرت عنه بوضوح تجربتهم الإبداعية، شعراً ونثراً. والواصلون إليها منهم، بعد مجاهدة ومعاناة، قلة قليلة. فما يعكر النفس الإنسانية في الحياة أكبر من أن تنتصر عليه الروح، والتحرر من إغراءاتها أشق على النفس وأصعب، كون هذه الإغراءات غاية من غايات بعض النفوس، أو من غاياتها كلها، إلاَّ من شغل النفس بجلائل الأمور والأعمال، ونزع إلى ما هو أبعد من اليقين والطمأنينة، عن طريق المعرفة اللامتناهية، على حد ما ذهب إليه "الشبلي" المتصوف في إحدى إشاراته: "المعرفة أولها الله، وآخرها ما لا نهاية له". وكثيراً ما كان التوحد بالطبيعة، بمعناه الصوفي، واحداً من الطرق المؤدية إلى ما يشبه اليقين المريح:

في صباح الحياة ضمّخت أكوابي
وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتُها إليك فأهرقتَ
رحيقي، ودُسْتَ يا شعب كأسي!

فتألمتُ.. ثم أسكتُّ آلامي
وكفكفتُ من شعوري وحسي
ثم نضّدتُ من أزاهير قلبي
باقةً لم يمسها أيُّ إنسي
ثم قدمتها إليك فمزقتَ
ورودي ودُسْتَها أيَّ دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً
وبشوك الصخور توَّجتَ رأسي
ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعبي
لأقضي الحياة وحدي بيأس
ها أنا ذاهب إلى الغاب علّي
في صميم الغابات أدفن بؤسي(٦).

في هـذا النص، الـذي يتجه به الشـابي إلى الشـعب، أكثر من ملمح يذكرنا بشعر الصوفية، إن لم يكن شـعراً صوفياً. من ذلك "خمرة النفس"، ثم هذا الإحساس بأهمية الانعزال والاتجاه إلى الغاب، بكل ما كان يحمله المعنى في تصورات الرومانتيكيين من براءة وطهارة وشـعور بالأمان الواسع؛ ألم يكن الصوفية يعشـقون البراري المقفـرة، ويهربون من ذنوب النـاس -لا من الناس- إلى الخلوات باحثين في هوائها عن سكينة النفس وهدوء البال، والتعلق بأمل الوصال من خلال استقراء الكائنات، والتأمل فـي متواليات الكـون العجيب، بشـعور الصوفي

إنهـا دعـوة إلى تخليـة مـرآة القلب وتخليصـها من الشـوائب العالقة بها، حتى تنعكس على صفحتها صور الوجود المادي والمعنوي... وربما كان لقراءته الصـوفية الباكرة أثـر في هذه التجربة

الـذي ينظر إلى الطبيعة بعين القلب وليس بمنطق العقل!؟ وهو ما تشـير إليه بوضوح الأبيات التالية من قصيدة بعنـوان "فكرة الفنـان" وهي من أكثر قصائده شـفافية عـن وعيه بالتقـارب بين فكرة الفنان والرؤية الصوفية:

عِشْ بالشعور وللشعور فإنما
دنياك كونُ عواطف وشعور
شِيدت على العطف العميق، وإنها
لتجفُّ لو شِيدت على التفكير.

❖ ❖ ❖

فتعيش في الدنيا بقلب زاخر
يقظ المشاعر حالم مسحور
في نشوة صوفية قدسية
هي خير ما في العالم المنظور(٧).

يعلـق الدكتـور عز الدين إسـماعيل على هذه الأبيات وأمثالها في مقدمته لديوان الشابي بقوله: "إنها إذن دعوة إلى تخلية مرآة القلب وتخليصها من الشـوائب العالقة بها، حتى تنعكس على صفحتها صـور الوجود المادي والمعنوي... وربما كان لقراءته الصوفية الباكرة أثر في هذه التجربة"(٨).

وفـي مكان آخـر يقـول: "إذن فمعانقة الحياة فـي صميمهـا من شـأنها أن تولد هذه النشـوة: نشـوة التعرف على حقيقة الكون وحقيقة الوجود، والمعرفـة امتلاك، وهــي -من ثم- قـوة، وعندما تتغلغل روح الإنسان في أعماق الوجود فتعرفه على حقيقته تكون بذلك قد اكتسـبت القوة التي تؤهلها لمواجهة الظواهر العارضة"(٩).

لسـت بحاجة إلى مزيد من القـول لكي أؤكد أن هذه الإشـارات تحدد ملامح الشاعر المتصوف الكامن في الشابي، أكثر مما تحدد ملامح الشـاعر الرومانتيكـي، وأنهـا تـكاد تتحدث عـن الملامح الصوفية الخاطفة في شعره بما تعكسه من تجليات

إشراقية وإشعاعات روحية. وأعود مرة ثالثة إلى مقدمة الدكتور عز الدين إسماعيل لأستزيد من إشاراته اللماحة، لاسيما حين يقول: "إن شاعراً يبحث عن الحقيقة الكلية المستخفية وراء مظاهر التعدد، وعن روح الجمال المثالي الذي يكمن في هذه الروح، وهذا الشاعر الذي سعادته في معانقة النور، لا يمكن أن يتخذ من العقل وسيلة للفهم والتعرف على الأشياء، لما يمثله العقل من صرامة المنطق، لمجافاته لطبيعة التجربة الشعورية..."[١٠].

إن الشابي، الشاعر الرومانتيكي المهموم بذاته في كثير من قصائده، يعد من أكثر شعراء هذا الاتجاه تعبيراً عن هموم الآخرين، ومن أكثرهم إحساساً بالمصير الإنساني. ومن خلال ذلك الهمّ المتعدد الجوانب، ذاتياً وإنسانياً، ينطلق الشابي في معارج الروح وتجلياتها النفسية، وتأملاتها المليئة بهواجس حضورها الكوني، والتي تتطابق فيها جوانب من رؤيته إلى الوجود مع الرؤى الصوفية، حين ترتقي بالحسي إلى المستوى الروحي:

شردت عن وطني السماوي الذي
ما كان يوماً واجماً مغموما
شردت عن وطني الجميل.. أنا الشقيُّ،
فعشت مشطور الفؤاد يتيما[١١].

أخيراً: هل لي أن أقول إن جزءاً من القاموس اللغوي للشابي يتماثل مع قاموس الصوفية، وأن جوانب من تجربته الشعرية تأتي -لذلك السبب- تأسيساً صوفياً باللغة إن لم يكن بالرؤية؟ سؤال تحتاج الإجابة عليه إلى إطلالة أوسع، وإلى وقفة أشمل وأطول من هذه القراءة العاجلة.

الهوامش:

(١) ديوان أبي القاسم الشابي، دار العودة، ط١، ١٩٧٢، ص٢٤٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٩.
(٣) نفسه، ص٤٩٢.
(٤) نفسه، ص٢٧٠.
(٥) نفسه، ص١٣٤.
(٦) نفسه، ص٢٤٨.
(٧) نفسه، ص٣١٩.
(٨) نفسه، ص٢٢.
(٩) نفسه، ص٢٣.
(١٠) نفسه، ص٣١.
(١١) نفسه، ص٣٢.